

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الخامسة - العدد العشرون - شتاء ١٣٩٤ ش / كانون الأول ٢٠١٥ م

صص ١٦٨ - ١٤٣

دراسة بنية ومضمون الحوار الأدبي (المناظرة) في أدب العصر المملوكي

عليرضا نظرى (الكاتب المسؤول)*

مريم فولادى**

الملخص

تعتبر المناظرة فناً من الفنون الأدبية فهي معروفة عند وقت طويل في الأدب العربي وكانت متداولة بين الشعراء والكتّاب. تشكل هذا النوع الأدبي من تقليد المناظرات الواقعية، محادثة عدائية أو ودية بين طرفي المناظرة وأحياناً يكون انساناً، حيواناً، نباتاً أو مفاهيم انتزاعية من الطبيعة وغيرها من العناصر. ولأنّ هذا النوع الأدبي كان موجوداً في الأدب المملوكي بشكل بارز ولا مع وبناءً على ذلك، كان هذا البحث بأسلوب وصفي - تحليلي لبحث في أدب المماليك بقسميه: النظرى والعملى؛ ففي القسم النظرى انكبّ هذا البحث على تعريف هذا النوع الأدبي (المناظرة)، وفي القسم العملى ذكر نماذج وأمثلة من المناظرات المنظومة والمنشورة في هذه الفترة الزمنية. تشير النتائج إلى أنه في المناظرات الشعرية (المنظومة) أكثر ما يكون التركيز على المحادثات بمعناها العام وبين البشر حيث كانت قصيرة وبدون حكم. أمّا المناظرات المنشورة فأكثرها معنى خاص وطبق قواعد خاصة، ترتبط بين العناصر غير البشرية حيث إنها أحياناً لديها جانب تعليمي أو ديني أو مدحى وبعض الأوقات الجانب الترفيهي.

الكلمات الدليلية: الأدب العربي، النظم والنثر، العصر المملوكي، فن المناظرة.

*. أستاذ مساعد بجامعة الإمام الخميني الدولية، قزوین، ایران

a.nazari@hum.ikiu.ac.ir

** . طالبة في اللغة العربية وآدابها بجامعة الإمام الخميني الدولية، قزوین، ایران

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندى

تاريخ القبول: ١٣٩٤/٧/١٨ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٤/٢/١٢ ش

المقدمة

غالباً ما يأتي ذكر دولة المماليك بعنوان فترة زمانية منحطة ومظلمة من تاريخ سقوط بغداد على يد هولوكوخان (٦٥٦ هـ) إلى عام (٩٢٢ هـ) حيث أصبح العثمانيون أصحاب قوة وقدروا وأداموا ذلك الانحطاط.

والحدث الأهم الذي حصل في فترة دخول هولوكو إلى بغداد هو أمره بقتل الكثير من العلماء وكبار العلم والأدب وتلاشى وضياع الكثير من الكتب والآثار العلمية والأدبية القيّمة، على هذا يمكن القول إنَّ هذه الفترة الزمنية هي عهد تلاشى العلم والأدب ولكن ليس هذا التلاشى أو الأفول إلى حدٍ يصفُهُ بعض الكتب التاريخية والأدبية. لأنه في هذه الفترة كان لدينا الكثير من الآثار الهامة والتي ليست فقط تقليداً محضاً من الأدوار الأدبية السابقة بل إنها تعتبر ابتكاراً أدبياً أو أنّ ظهورها الأقوى والبارز كان في هذه الفترة، لذا فإنّه من الواجب، الاهتمام بتلك الحقبة الزمنية وإظهار النقاط الإيجابية الساطعة فيها أكثر من قبل.

واحد من الفنون الأدبية التي ظهرت آنذاك وأصبحت ضرباً من الالتزام والتي هي جديرة بالبحث، (فن المناظرة)، وهناك نماذج شعرية ونثرية مهمة من الشعراء والكتّاب اختصت بهذا المجال.

وحفلت كتب الأدب واللغة والتاريخ بالنصوص التي تدلّ على بلوغ المناظرة مكانة رفيعة بين فنون الأدب المختلفة، وعلى الرغم من ذلك لا نجد من الأدباء والمؤرخين من يفرّد لها بحثاً خاصاً وإنما دارت البحوث حول القصة والمسرحية والخطبة والرسالة، والحقيقة أنّ المناظرة، فن أدبي مستقل له سماته وأهدافه وخصائصه. (غلامحسين زاده والزملاء، ١٤٣٢ق: ٢٢) وهى عبارة عن أنّ الشاعر أو الكاتب يضع طرفي المناظرة قبال بعضهما الآخر ويجبرهما على الحديث بموضوع معين وفي النهاية يتفوق أحدهما على الآخر. (داد، ١٣٧١ش: ٢٧٧) لذا فإنَّ هذا البحث يختص بهذا النوع الأدبي في تلك الفترة الزمانية حتى يسלט الضوء على الآثار الجيدة في ذلك الظلام التاريخي. وسيكون البحث في بنيته على منهج وصفى - تحليلي ويتناول الموضوع في قسميه النظري والتطبيقي.

من جملة الأسئلة التي يسعى هذا البحث للإجابة عنها: ١- إنّه على أي أساس وبأي دليل نستطيع أن نعتبر المناظرة فناً أدبياً مستقلاً؟ ٢- ما هي أهم المواضيع التي طرحت من خلال المناظرات الأدبية في تلك الفترة؟ ٣- كيف يقيم منشأ المناظرات في العهد المملوكي؟

والفرضيات التي يمكن طرحها للأسئلة المذكورة هي: ١- بما أن المناظرة أسلوب أدبي يدوم على العصور المتوالية منها المملوكي وبما فيها من الأغراض والبنى التخاطبية يمكن عدّها فناً راعياً أدبياً يتمثل في الشعر والنثر ٢- الموضوع الرئيس في المناظرة هو التفاضل حيث يظهر في التخاطب بين الأشخاص والأشياء المتنوعة وأما سبب التفاضل فيختلف من مناظرة إلى أخرى ٣- يمكن أن نعدّ المناظرة في ذروة جمالها وأدبيتها في هذه الفترة ومن أكثر الفنون استخداماً في الشعر والنثر المملوكي.

خلفية البحث

مع أنّ المناظرة لها سابقة زمنية طويلة في الأدب العربي ولكنها قلما كانت يُعنى بها بالنسبة إلى الأنواع الأدبية الأخرى والكتب والمقالات التي كتبت في هذا المجال قليلة جداً إضافة إلى ذلك فإنّ هذه الأبحاث لم تبحث في أدوار الإنحطاط بشكل خاص بل إنّ قلة الاهتمام بهذا الموضوع هو مجد ذاته جدير بالذكر.

على سبيل المثال في مقالة "المناظرة الأدبية وسماتها الفنية في الأدب العربي" لتمساح على أحمد النحيلة (كلية اللغة العربية، ١٤١٩ق) تتضمن المقالة فقط عنواناً كلياً وشاملاً وتبحث عن بعض المناظرات المنشورة. أو مقالة "الحوار في الشعر العربي القديم" لمحمد سعيد حسين مرعي (مجلة جامعة تكريت، ٢٠٠٧م) والتي أيضاً بعنوان ساحر وعام، تتضمن فقط تحليل شعر امرئ القيس. ومن الأبحاث التي أنجزت بشكل مقارن بين الأدبين العربي والفارسي يمكن الإشارة إلى الأبحاث المقارنة بين "المناظرات الأدبية المنشورة الفارسية والعربية" لنعيمة حسوكي والتي ذكرت المناظرات المنشورة في كل الأدوار التاريخية (أطروحة دكتوراه، ١٣٨٩ش) أو بهنام فارسي حيث انصرف في رسالة الماجستير إلى بحث مقارن بين "المناظرات الأدبية في الأدبين الفارسي والعربي". بذكر

الأمثلة السابقة يتوضح لنا أنّ فترة الانحطاط الأدبي لم تكن محط تحليل أو بحث في أي من الأبحاث السابقة مع أنّ تلك الفترة واحدة من العصور الأدبية المثمرة بهذا النوع الأدبي (المناظرة).

الإطار المفهومي للبحث ١-١- الأنواع الأدبية

قام كبار الأدب بوضع تعاريف كثيرة للأدب من جملتها؛ الجرجاني في كتابه التعريفات قال: «الأدب عبارة عن معرفة ما يحترزُ به عن جميع أنواع الخطأ، آداب البحث؛ صناعة نظرية يستفيدُ منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخطِ في البحث وإلزاماً للخصم وإفخامه.» (الجرجاني، ١٤٠٧ق: ٣٦) ففى الواقع إن الأدب بالمعنى اللغوي للكلمة يعنى الثقافة والعلم، الفن، حسن المعاشرة، وبذلك يكون معناهُ تأديبا. وفي الاصطلاح هو علمٌ عرّفه القدماء على أنّه يشتمل على اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية، وقوانين الخط وقوانين القراءة وبعضهم أضاف اشتقاق قرض الشعر والإنشاء والتاريخ. (معين، ١٣٨١ش: ٥٧) ولكن الأدب بالتعبير المعاصر يقتصر على الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب. (أحمد بدوى، ١٩٩٦م: ١٩)

الأدب بشكل أساسى ومحورى قسمان: شعر ونثر. حيث إنّ كلا من الأقسام السابقة قابلة للتقسيم، فالشعر على أساس ظاهره وقالبه الشعرى؛ إمّا قصيدة أو غزل أو قطعة أو مثنوى و... وعلى أساس المحتوى والموضوع والأسلوب ينقسم إلى أنواع مختلفة كالشعر الحماسى والتعليمى والدينى و... حيث قام رزجوى فى كتابه الأنواع الأدبية إلى تقسيم الأشعار من حيث المحتوى والمضمون الشعرى ونوع الأفكار والعواطف والحالات والتجارب الشعرية إلى: ١- أشعار حماسية ٢- غنائية ٣- مدحية ٤- تعليمية ٥- دينية ٦- انتقادية ٧- رثائية ٨- تهنئة ٩- بث الشكوى ١٠- وصفية ١١- القصصية ١٢- المناظرة ١٣- عامية ومحلية. (انظر: رزجوى، ١٣٧٠ش: ٥٢-٥٣)

يعتقد البعض أنّ الأنواع الأدبية تنقسم إلى قسمين، حيث إنّ الأنواع الأدبية الأصلية

في وجهة نظرهم عبارة عن: حماسية، غنائية، مسرحية، قصصية، قصة قصيرة. وأنواع فرعية تشمل: مرثية، مفاخرة، مناظرة، هجو، مدح، مناجات، تمثيل، مقالة، حياة الشاعر أو الكاتب. (رحيمي، ١٣٧٤ش: ١٨) تواجهنا أيضاً في النثر أنواع مختلفة، حيث أشار إليها أحمد بدوى في كتابه "أسس النقد الأدبي" وهي كما يلي:

الرسائل السلطانية، الرسائل الإخوانية، الرسائل الأدبية، المقامات، المفاخرات، الحوادث الجارية، رسائل الصيد، عقود الزواج، الإجازات العلمية، التقرير، التهذيب، التاريخ، القصص، مقدمات الكتب، الهزل. (انظر: أحمد بدوى، ١٩٩٦م: ٥٧٣-٥٩٣) حيث أنه طرح المناظرة تحت عنوان المفاخرات.

وبناءً على ذلك فإن المناظرة نوع أدبي، حيث إنَّها كانت يهتم بها الشعراء والكتّاب في الأدبين الفارسي والعربي، منذ القدم. حيث كانت تظهر أحياناً في قالب شعري وأحياناً أخرى في قالب النثر. ومن النظر الأدبي أيضاً لها أهمية بالغة ولأنَّ هذا النوع الأدبي قد استخدم بقوة في النصوص الأدبية في العهد المملوكي. لذلك قمنا ببحث المناظرة في آداب تلك الفترة.

١-٢- المناظرة:

يقول ابن منظور في لسان العرب تحت كلمة المناظرة: «المناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتياه.» (ابن منظور، ١٤٠٥ق: ٢١٧) وفي الواقع المناظرة في اللغة تعني «النظر مع بعضكم البعض، أي التفكير في حقيقة وماهية الأشياء ومن ثم البحث فيه سويةً والمجادلة والنزاع سويةً والبحث سويةً في الحقيقة وماهية الأشياء والسؤال والإجابة سويةً والبحث.» (دهخدا، ١٣٧٣ش: ١٩٠٤٥) ولكن في الاصطلاح عبارة عن تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع يثير الجدل، كبعض الموضوعات السياسية أو الأدبية. (وهبة، ١٩٨٤م: ٣٩٠)

وأحياناً تكون المناظرة بصورة واقعية وتستخدم في العلوم المختلفة منها في المنطق والعلوم الدينية والأبحاث العلمية والسياسية... وهي في هذه الحال تتطلب شروطاً ورسوماً خاصة ولكن مسألة بحثنا هي المناظرات الأدبية والتي تكون أحياناً بين عدة

أشخاص، على الأخص بين العاشق والمعشوق وأحياناً تكون بين الحيوانات والنباتات والأشياء و... .

ولأنه في هذا النوع من المناظرات عادةً ما تتجادل وتتنازع عدة شخصيات خيالية، سواءً كانت حيواناً أو نباتاً أو أشياء دون روح (جماد) ومفاهيم محضة لذا بعض الشعراء سموها (نزاع، جدال) ذلك لأن كل شخص من هذه الشخصيات يسعى في مناظرته أن يثبت تفوقه وتميزه على الطرف الآخر وأحياناً تسمى المناظرة مفاخرة. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٣٢) وطبعاً سميت للمناظرة في اللغة العربية (بالحوار، المحاوره والمجاوبه).
للمناظرة ثلاثة شروط:

الأول: أن يُجمَع بين خصمين متضادّين أو متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواصّها بالمقابلة كالربيع والخريف والصيف والشتاء.

الثاني: أن يأتي كلٌّ من الخصمين في نُصْرته لنفسه وتفنيد مزاعم قرنه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره ويحطّ من مقام الخصم بحيث يميل بالسامع عنه إليه.

الثالث: أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسناً وترتّب على سياق محكم ليزيد بذلك نشاط السامع وتتمى فيه الرغبة في حل المشكل. (المهاشمى، ١٣٦٦ش: ١٨٨)

تستخدم المناظرة إمّا بمعناها العام أو بالمعنى الخاص فهي بالمعنى العام تقريباً تتضمن أى نوع من الأحاديث بين طرفين أو أكثر. سواء أكان الحديث طويلاً أم قصيراً، سواء أكان فيه جانب عدواني أو مسابقة أو لا، سواء أكان ينتهي بحكم أو لا. ولكن عندما تستخدم المناظرة بالمعنى الخاص، عندها تكون عبارة عن حديث أو كلام ينجز طبقاً لقواعد خاصة. مثلاً يسعى كل واحد من المتخاصمين إلى تعداد محاسنه وذكر مساوئ الطرف المقابل ويشير إلى نفسه على أنه أفضل من الطرف المقابل، هذه الأحاديث والمناظرات أكثر ما تكون وتحدث بوجود وحكم طرف ثالث وغالباً ما يسعى الحكم إلى إرضاء الطرفين المتخاصمين ويصلح بينهما. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٣٤)

وكانت موضوعات هذه المناظرات مختلفة، منها القضايا الدينية والأخلاقية والسياسية والغرامية. (وهبة، ١٩٨٤م: ٣٩٠) حيث إنّ المناظرات في هذه الموضوعات غالباً ما تكون لأسباب وبواعث مختلفة على سبيل المثال، أحياناً الهدف من هذه

المناظرات هو إثبات أو نفى مسألة أو عقيدة خاصة، تحقير الطرف المقابل، إظهار المحبة في أحاديث العشق بين العاشق والمعشوق، مدح المدوح، التفاخر على الأخرى وأحياناً هذه المناظرات فقط للتسلية وإظهار القدرة الفنية في الشعر والنثر.

يعتقد البعض أن المعنى الأصلي (البنية الأساسية) للمناظرة هي الحماسة بما فيها من تفاخر بين طرفين وتفضيل شخصه على الآخر، ويأخذ بالاختلافات اللفظية وكل شخص يفضل نفسه على الآخر معتمداً على استدلالته الخاصة وفي النهاية لدينا غالب ومغلوب. (انظر: شمس، ١٣٧٣ش: ٢٢٧) والمناظرة من ناحية أخرى لديها جذور في المفاخرة لأن التفاخر في الثقافة العربية وفي الأدب الفارسي يعني الامتياز والتفوق فإن هذه التفاخرات، أخذت تدريجياً خصائص طرفي المنازعة وظهرت بشكل طرفين وبصورة الأسئلة والأجوبة أو قال وقلت وفي اللغة الفارسية (گفتم و گفتا). (شوشتری، ١٣٨٩ش: ٦٣) بشكل عام تجدر الإشارة إلى أن جنس الحوار أو المناظرة جنس عام، يتخذه الكاتب أو الشاعر قالباً فنياً لأغراض كثيرة. (غنيمي هلال، ١٩٦٢م: ٢٦٤) وفي الواقع أن المناظرة؛ أسلوب وطريقة حيث إنها إشارة نوعية للتغيير في أفكار لمجتمع معتقد بقول ما قد مر من مرحلة أحادية الجانب وقادر على إدراك الآخر حضوره. (محمدی، ١٣٨٣ش: ٧٣)

١-٣- سابقة المناظرة

تعود كتابة المناظرة في الأدب العالمي إلى الحضارات البابلية والأكدية والسومرية بين النهرين. حيث وجدت إلى الآن أجزاء من عشرات المجادلات والمنازعات باللغة الحالية تعود إلى تلك الحضارات حيث كتبت على ألواح طينية في تلك الفترة. تعود قدمة هذه النزاعات إلى حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد وهي تمثل لنوع أدبي استمر بعد ذلك في الآداب الإيرانية والعربية واللغات الأوروبية في القرون الوسطى. (بورجوادی، ١٣٨٥ش: ٣٢ و ٤١)

يعود استخدام لفظ المناظرة في اللغة الفارسية إلى عصور قديمة حيث نستطيع أن نشاهد أول نموذج هذا الأسلوب في الأدب قبل الإسلام وفي الآثار المستبقة من اللغة

البهلوية. (محمدى، ١٣٨٣ش: ٧٠) ففي الأدب البهلوى أو الإيراني القديم راجت نزعة شعبية يُقصد فيها إلى شرح وجهتى نظر مختلفتين فى شكل الحوار أو الجدل، أو فى عرض صورتين أدبيتين متضادتين إحداهما بجانب الأخرى. وقد بقى لنا من الأدب الإيراني القديم حوار أدبى عنوانه «الشجرة الأشورية.» (غنىمى هلال، ١٩٦٢م: ٢٥٨) ولكن أسدى طوسى هو مبتكر المناظرة فى الشعر الفارسى الدررى حيث إنَّ مناظراته الخمسة عبارة عن: "عرب وعجم: العرب والعجم"، "آسمان و زمين: السماء والأرض"، "نيزه وكمان: السهم والرمح"، "شب وروز: الليل والنهار"، "مغ و مسلمان: المغان والمسلمين"، حيث إنَّ الشاعر تخيّل بين كل واحدة من تلك المناظرات طرفين وأحضر دلائل على تفوّق أحدهما على الآخر. وبالتالى كان أحدهما مجيباً والآخر مجاباً. (محمدى، ١٣٨٣ش: ٧٠)

١-٣-١- المناظرة فى الأدب العربى

غالباً ما تعود المناظرة فى الأدب العربى إلى العهد الإسلامى وبعده، فقد أشير إليه بشكل غير مباشر فى القرآن الكريم وتمّ تكليف المسلمين بهذا الأسلوب حيث ورد فى القرآن الكريم "جادلهم بالتي هي أحسن" ولأنّه قد ذكر فى التفاسير "جادلهم" بمعنى "ناظرهم". (رحيمى، ١٣٧٤ش: ٣٥) ويمكن مشاهدة أمثلة أخرى فى هذا المجال (المفهوم) كما فى سورة هود، والأعراف، ومريم... ونستطيع أن نعدّ المجادلة التى عُرفت بالنقائض فى العهد الأموى بين جرير والأخطل، نوعاً من المناظرة.

هذا النوع الأدبى موجودٌ أيضاً فى العصر العباسى حيث إنَّ أشهر الأدباء والكتّاب فى هذه الفترة، جاحظ البصرى (١٦٠-٢٥٥ق) حيث ترك الكثير من الآثار المنظومة والمنشورة أيضاً فى هذا المجال منها: العرجان والبرصان، مفاخرة الجوارى والغلمان، فخر السودان والبيضان، الأسد والذئب، و... (اذكائى، ١٣٨٦ش: ٧)

ولكن قد لوحظت كثرتها عند شعراء العصر المملوكى على غير ما كان معروفاً فى الشعر العربى القديم، ولا يعنى هذا أنها لم تكن موجودة فيه، وإنما قصدت الإشارة إلى أنها أصبحت ضرباً من الالتزام، فما كان عفويّاً فى أسلوب الشعر أصبح معتمداً فيه، وما

كان في شعر الأقدمين غير ملتزم، أصبح عند شعراء هذا العصر واجب الالتزام. (باشا، ١٤٢٥ق: ٣٣١)

تعدُّ المناظرة من الأنواع الأدبية التي أهملها الباحثون المعاصرون كلية، على الرغم من أنها تشكل نوعاً بارزاً في قائمة الأنواع الأدبية التي كانت تصوغ محتويات كتب الأدب العربي الإسلامي القديم ولكن لم تُدرَس إلى الآن، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي القديم دراسة علمية تطرحها نوعاً أدبياً، وتضعها في إطار الأنواع الأخرى التي تُشكّل مجموع الأدب القديم. (الصديق، ٢٠٠٠م)

٢- القسم التطبيقي للبحث

الآثار الأدبية والتي كانت على شكل المناظرة في العصر المملوكي كثيرة نسبةً للعصور السابقة لأنه كما أوضحنا سابقاً جاء استخدام أسلوب المناظرة في هذه الفترة بشكل الزامي والتزامي والأدباء الذين اهتموا بالمناظرة في تلك الفترة كثيرون ومن جملتهم: صفياالدين الحلبي، والشابُّ الظريف، وعمر بن الوردى، والقلقشندى، وابن نباتة المصرى، والسراج الدين الوراق، وبهاء الدين الزهير، والبرعى، والشهاب المنصورى، وابن الرزيق، والصاحب شرف الدين، وابن حجر العسقلانى، وشهاب الدين الخلوف، وابن دقيق العيد و... .

والمناظرات الأدبية في هذه الفترة قسماً: منظومة ومنثورة، حيث إننا سنأتى على ذكرها ومبحثها في الآثار المنظومة أولاً ثم سننكبّ على الآثار المنثورة.

٢-١- المناظرات الشعرية

٢-١-١- من حيث طرفي المناظرة:

إن أول وأهم العناصر في بنية المناظرات هو طرفاه يكونان من جنس بشرى أو غير بشرى يمكن تحليلهما على الأقسام التالية:

٢-١-١-٢- المناظرات بين العاشق والمعشوق:

غالباً ما كانت المناظرات المنظومة في هذه الفترة بين العاشق والمعشوق، ويمكن لنا

أن نشاهد نموذجاً منها في أبيات صفي الدين الحلبي:

قلت: ارتقباً لطيفكِ الحسن	قالت: كَحَلَّتْ الجفونَ بالوسن
فقلت: عن مسكني وعن سكني	قالت: تَسَلَّيْتُ بعدَ فُرُقَتِنَا
قلت: بفرط البكاء والحزن	قالت: تَشَاغَلْتُ عن مَحَبَّتِنَا
قالت: تناءيت، قلت: عن وطني	قالت: تناسيت، قلت: عافيتي!
قالت: تَغَيَّرتَ، قلت: في بدني	قالت: تَحَلَّيْتُ، قلت: عن جلدي!
فقلت: بالغبن فيك والغبن	قالت: تَخَصَّصتَ دونَ صُحْبَتِنَا

(ديوان صفي الدين الحلبي، لاتا: ٤٠٩-٤١٠)

إن هذا الغزل، مناظرة بين العاشق والمعشوق وكلمتا (قالت وقلت) تكررت في هذه المناظرة عدا البيت الأخير وأحياناً في بعض الأبيات تكررتا مرتين، حيث إنه طالما كانت لافته للنظر وتزيد في جمال البيت من حيث الاتساق اللفظي. نظم الشاعر في هذا الغزل، الحديث بين العاشق والمعشوق بصورة جواب وسؤال، وفي المناظرة عنصر جمالي آخر هو نوع إجابة العاشق بحيث يثير إعجابنا ويزيد جماله بأن المعشوقة تسأل سؤالاً ولكن العاشق يجيب بجواب على غير السؤال الذي طرَحَ وكان متوقفاً.

٢-١-١-٢- المناظرات بين الإنسان والشيطان:

يعتبر الشهاب المنصوري من الشعراء الذين له محادثات خيالية مع إبليس. في هذا الحديث يصف ليلة كان يسيطر النوم الثقيل على عينيه وحينئذٍ يظهر له إبليس أمامه ويقوم بخداعه. يبدأ المحادثة على النحو التالي:

وليلةً بتُّ بها و الكرى	في مقلتي أذباله تسحبُ
إذ جاءني إبليسها عارضا	على أنواعاً بها يخلبُ
فقال لي هل لك في غادة	في وجنتيها الصبحُ و الكوكبُ
فقلت لا، قال و لا شادن ^١	يرنو بطرفٍ بالنهاي يلعبُ
فقلت لا، قال و لا قهوة	يكسوك كاس الملك إذ تُشربُ

١. الغين والغين (بتسكين الباء وفتحها): الخداع

٢. الشادن: ولد الغزال، استعارة للغلام

فقلت لا، قال ولا كبشةٍ خضراء فالعيشُ بها طيبُ
فقلت لا، قال ولا مطربٍ إذا شدا عند الصفا يطربُ
فقلت لا، قال فتم معرضاً عنى فأنت الحجر المتعبُ

(السيوطي، ١٩٢٧م: ٨٦)

وابن الوردى أيضاً له محادثة بنفس المضمون مع إبليس:

نمتُ و إبليسُ أتى بحيلةٍ مُعتدبه
فقال ما قولك في حشيشةٍ مُطَيِّبه
فقلت لا، قال ولا خمرةٍ كرمٍ مُذهبه
فقلت لا، قال ولا أمرَدٍ بالبدرِ اشتهه
فقلت لا، قال ولا مليحةٍ مكتبه^١
فقلت لا، قال ولا آله هو مطربة
فقلت لا، قال ولا نردٍ رجاءِ المكسبه
فقلت لا، قال فتم ما أنت إلا خطبه

(السبكي، ١٩٦٤م: ١٠١)

كما نشاهد في كلتا المناظرتين، إبليس في بداية كل مناظرة يبدأ بمخادع الشاعر بأساليبه الماكرة، ولكن يكون جواب الشاعر في كل أبيات المناظرة بالنسبة للشيطان جواباً سليماً بمقاومته للأساليب المخادعة للشيطان يفوز بالنهاية، طبقاً ترى المناظرات الانتزاعية مع الشيطان أيضاً في أشعار صفى الدين الحلبي والتي تتشابه مع المناظرات السابقة الذكر من حيث المضمون والمحتوى وحجم القصيدة. ولكن نتيجة المحادثة مع الشيطان متباينة لأن صفياالدين الحلبي يعتبر أن الإنسان ذو طينة سيئة وكلما يعرض الشيطان على الإنسان شيئاً يقبله الإنسان بقلبه وعقله:

وليلةٍ طالَ سهادى بها فزارنى إبليسُ عند الرقاد
فقال: هل لك في شفقة^٢ كبشية تطرُدُ عنا السهاد؟!

١. المكتبة:المجتمعة الخلق

٢. الشفقة: القطعة من الخزف، والمراد هنا الحشيشة الخضراء. (باشا، ١٤٢٥ق: ٣٣٣)

قلتُ: نعم! قال: وفي قهوةٍ عتَقَهَا العاصِرُ من عهدِ عاد؟!
قلتُ: نعم! قال: وفي مطربٍ إذا شدا يطربُ منه الجماد؟!
قلتُ: نعم! قال: وفي طفلةٍ في وَجنتِها للحياءِ اتقاد؟!
قلتُ: نعم! قال: وفي شادنٍ قد كُحِلَت أجفانهُ بالسَّواد؟!
قلتُ: نعم! قال: نعم آمناً يا كعبةَ الفسقِ وركنَ الفساد؟!
قلتُ: نعم! قال: نعم آمناً

(ديوان صفى الدين الحلبي، لاتا: ٦٢٨)

٢-١-١-٣- المناظرات بين الورد (الأزهار)

وقد تكون المناظرات بين الأزهار كمناظرة صفى الدين الحلبي، حيث إنَّ طرفي مناظرته ورد الزنبق والورد الأحمر. كل من الطرفين يسعى إلى إثبات تفوقه وجماله على الآخر وقد تميل المناظرة أحياناً لتحقير الطرف الأول للطرف الآخر ومسخرة الطرف المقابل للطرف الأول؛ في الحقيقة قام صفى الدين الحلبي في هذه المناظرة بإضفاء صفة الروح بتمام خياله إلى الأزهار وجعل الورد وتتحدث بلسانه وكان موقفاً في ذلك المحادثة:

قد نَشَرَ الزَّنْبِقُ أعلامَه وقال كلُّ الزَّهْرِ في خِدْمَتِي
لوم أكن في الحسِنِ سُلْطانَه مارُفَعْتَ، من دونِه، رايتِي!
فَقَهَّهَ الوردُ به هازئاً وقال، ما تَحَذَرُ من سَطَوَتِي؟
وقال للسَّوسَنِ: ماذا الذي يقولُه الأَشْيَبُ في حَضْرَتِي؟
وامتَعَضَ الزَّنْبِقُ في قولِه وقال للأزهار؛ يا عُصْبَتِي!
يكونُ هذا الجَيْشُ بي مُحدِّقاً ويضحكُ الوردُ على شَيْبَتِي؟

(ديوان صفى الدين الحلبي، لاتا: ٥٥٤)

٢-١-٢- من حيث الحجم:

تتبادر إلى البال أنَّ المناظرة بمعناها العام لها حجم واسع وكبير أمَّا المحادثات الأدبية

١. يقال جارية طفلة: إذ كانت رقيقة البشرة ناعمة، وعند الأصمعي الطفلة الجارية الرحصة الناعمة.

(نفسه)

في شعر شعراء العصر المملوكي متباينة من حيث الحجم وأحياناً تكون بيتاً أو بيتين أو ثلاثة أبيات:

قُلْ لَهُ ائْتَنَى وَانْتَشَا جُدْ بَوْصَالٍ مِنْكَ لِي إِنْ تَشَا
فَقَالَ لِي تَبْغِي وَصَالَ الرَّشَا وَأَنْتَ لَا تَبْدُلُ مِنْكَ الرَّشَا
فَقُلْتُ هَذِي مُهَجَّتِي وَالْحَشَا قَالَ انظُرُوا بِالْجَهْلِ كَيْفَ أُنْحَشَا

(ديوان الشاب الظريف، ١٤١٥ق: ١٨٦)

قُولُوا لِرَسَامِكُمْ بَكَ الْفَوَادُ مُغْرَمٌ
قَالُوا مَتَى تُدِيئُهُ فَقُلْتُ حَتَّى يَرْسُمُ

(ديوان الشاب الظريف، ١٤١٥ق: ٣٠٧)

وأحياناً تتجاوز البيتين وتشتمل أبيات كثيرة كشعر ابن رزيق حيث قام بوصف العشق والمعشوق ووصف علاقته بمعشوقه في عدة أبيات ثم ينطلق لغرضه الأصلي من الشعر وهو مناظرة بينه وبين معشوقه:

تَقُولُ وَكُفُّهَا تُلَوِي بِكَفِّي أَتَقْصِدُ مَنْ إِذَا نَبَتِ الدِّيَارُ
فَقُلْتُ النَّدْبَ سَالِمَ ذَا الْمَعَالِي لَعَمْرِكِ مِنْ بِهِ تَسْحَمِي الدِّيَارُ
فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلِكٌ كَرِيمٌ يَسِيلُ بِجُودِ رَاحَتِهِ النَّضَارُ
فَقَالَتْ وَإِنَّهُ بَطْلٌ كَمِيٌّ لَهُ فِي الْمَجْدِ قَدْرٌ وَالْقِتْدَارُ
فَقَالَتْ إِنَّهُ لَكَثِيرٌ عَفْوٌ لِحَانِيهِ مَوَاهِبُهُ غِرَارُ
فَقُلْتُ نَعَمْ وَذَلِكَ لِلْأَعَادِي سَهَامٌ عَنْهُ لَمْ يُغْنِ الْفِرَارُ
فَقَالَتْ إِنَّهُ دَفَّاعٌ خَطْبٌ وَمَعْضَلَةٌ إِذَا ضَاقَ الْفِرَارُ
فَقُلْتُ إِذَا أَكْفَهَرَ الْخَطْبُ لَيْثٌ أَظَافِرُ كَفِّهِ الْبَيْضُ الْقَصَارُ
فَقَالَتْ كَفُّهُ بِالْجُودِ يَجْرِي بِأَوْدِيَةِ تَضِيقُ بِهَا الْقَفَارُ

(ابن رزيق، ١٤٠٣ق: ٣٨-٣٩)

٢-١-٣- من حيث نوع أفعال المناظرة:

قد استخدم الشعراء مشتقات فعل (قال وقلت) في المناظرات الأدبية المنظومة لهذه

الفترة وتُعتبرُ مناظرةُ صاحبِ شرفِ الدين نموذجاً بارزاً من هذا النوع:

... فقال: فيضُ دُمُوعٍ تلتدُهُنَّ التِذَاذَا
فقلتُ: قد نَضَبَ الدَّمَ عُ وابلأاً و رَذَاذَا
فقال: ما ذاكُ عُذْرٌ لُذ بالدَّمَاءِ مَلَاذَا
فقلتُ: عَوِذِي بِصَبْرٍ فقال: ليسَ مَعَاذَا
فقلتُ: جُدْ لِي بِوَصْلِ فقال: سَلْ غَيْرَ هَذَا
فقلتُ: أَتَلَفْتُ رُوحِي فقال لي: كَانَ مَاذَا؟

(ديوان صاحب شرف الدين، ١٩٦٧م: ١٨٩-١٩٠)

ولكن عدل بعضهم عن استخدام (القول) كما نشاهد في مناظرة صفي الدين الحلبي واستخدم (المجاوبة) بدل (القول):

عاقبتُ مَنْ أهواهُ في هجرى و أكثرتُ الملامَةَ
فأجابني: أقللتُ حَبَّـ كَ لِي، فأبديتُ الجَهَامَةَ
فأجبتُ: إِنَّ كَرَامَتِي فرضُ عليكِ إلى القِيَامَةِ
فأجابني: مَنْ ما لَهُ حُبُّ فليسَ له كرامَةَ

(ديوان صفي الدين الحلبي، لاتا: ٤٣٠)

على أية حال لا تخلو المناظرات عن فعل يتكرر في كل الأبيات ويشير إلى قول كل طرف من المناظرة مساعداً في بناء البنية السردية والاتساق النصي فيها.

٢-١-٣- من حيث البنية:

البنية الأساسية في المناظرات المنظومة في العهد المماليك قسماً، وهو طرفي المناظرة ويكتفى الشاعر فقط ببيان حديث الطرفين، فالنتيجة والحكم لا يأتي على ذكرها ومثال الأشعار المذكورة سابقاً لا يزال يدل على هذه القضية.

١. الوابل: المطر الشديد الضخم القطر، وقد جاء في نعت الدمع تشبيهاً بالغرارة والكثرة.
٢. الرذاذ: المطر الضعيف، أو الساكن الدائم الصغار القطر كالغبار أو هو بعد الطل، وقد جاء في نعت الدمع تشبيهاً.

٢-٢- المناظرات المنثورة

لم تكن المناظرات الأدبية في العهد المملوكي مختصة بالشعر فقط، بل كانت هناك كثيرة من المناظرات المنثورة لبيان التفوق والتفاضل بين العناصر المختلفة في هذه الفترة وفي هذه المناظرات يقوم كلا الطرفين بتعبير عن فضائلهما ويعتبران دلائلهما بالأساليب الأدبية الجميلة. وقد تنتهي الحكم بينهما بتفوق كلا الطرفين أو تنتهي بدون الحكم ويجبر القارئ أن يعطى حكماً مناسباً. عدد المناظرات المنثورة في هذه الحقبة الزمنية كثير جداً ومواضيعه مختلفة، مادية ومعنوية، نحو مناظرات بين عناصر الطبيعة، الأماكن المختلفة، الأشياء، الحيوانات، النباتات، أنواع العلوم، الإنسان وإبليس و... ومن جملتها نستطيع الإشارة إلى المناظرة بين مكة والمدينة (على بن يوسف الزرندى)، مفاخرة بين جزيرة الروضة ومصر (محمد بن أبي بكر الأسيوطي)، المفاخرة بين الشمعدان والقنديل (تاج الدين اليماني)، انوار السعد ونوار المجد في المفاخرة بين النرجس والورد (تاج الدين اليماني)، مفاخرات مألقة وسلا (لسان الدين بن الخطيب)، كاشف الغمة في المفاخرة بين النخلة والكرمة (أبي القاسم النجدي)، مناظرة بين القلب والعين (ابن قيم الجوزي)، المقامة الوردية في الرياحين والزهور (السيوطي)، المفاخرة بين الورد والنرجس (ابن نباتة) مفاخرة الورد مع النسرين (عز الدين بن غانم المقدسي) و... .

ولا يمكن لنا أن نقوم بتعريف كل هذه المناظرات في هذا المجال لذا نكتفي هنا بتعريف نماذج لها شهرة كثيرة:

٢-٢-١- المناظرة بين الأشياء

هناك مثال واضح وبارز للمناظرة بين الأشياء، وهو مناظرات (السيف والقلم) والتي تُرى في آثار ثلاثة أدباء معروفين في هذه الفترة وهم ابن الوردى، وابن نباتة، والقلقشندي.

يعدّ ابن برد الأصغر (٤٤٠ق) في الأندلس أول من عقد مفاخرة بين السيف والقلم وكتبها لممدوحه الموفق ابوالجيش مجاهد العامري وجاء بعده بثلاثة قرون زين الدين عمر بن الوردى ليبدوّ مناظرته بين السيف والقلم مرة أخرى. (غلامحسين زاده والزلاء،

(١٤٣١ق: ٢٣)

(الف) مناظرة السيف والقلم لزين الدين عمر بن الوردى (متوفى، ٧٤٩ق)

تبدأ هذه المناظرة بمقدمة حول السيف والقلم حيث إنّ أساس وعماد الدولة مبنى على هاتين الوسيلتين وعلى كل حكومة أن يكون لديها هذان الركنان أو أن توفرهما وأنّ ابن الوردى كان يُعرّف تماماً قيمة هذه العناصر ومنزلتها فقد وضعتهما (القلم والسيف) في المجلس مقابل بعضهما الآخر ودعاهما للمناظرة ليحكم في أمرهما.

في هذه المناظرة يفتح القلم الحديث ويقول: «بسم الله مجراها ومُرْسَاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها.» (ناجى، ١٩٨٣م: ١١٨) وبعد الحمد والدعاء لله يبدأ بعد فضائله: «فإنّ للقلم قصبُ السباقِ فالكاتِبُ بسبعة أقلام من طبقاتِ الكتاب في السبع الطباق جرى بالقضاء والقدر وناب عن اللسان فيما نهى وأمر...» (السابق) وبعد انتهاء حديث القلم، يكمل السيف الحديث فيقول كما قال القلم، ويذكر الله وقسما من الآية ٢٥ لسورة الحديد وبعدها ينصرف لوصف نفسه: «قال السيف: بسم الله الخافض الرافع (وأنزّلنا الحديد فيه باسّ شديدٌ ومنافع) ... فإنّ السيف عظيمُ الدولة، شديدُ الصولة، محمّا أسطارَ البلاغة، وأساعَ ممنوعَ الإساغة، من اعتمد على غطره في قهر الأعداء تعب و...» (السابق: ١١٩) كلا من القلم والسيف ضمن حديثه يصف مساوئ الطرف الآخر وبذلك يحقر الطرف الآخر ويرفع من جانب نفسه:

«قال القلم: ... أنا المخصوص بالرأى وأنت المخصوص بالصدى ، أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى...»

قال السيف: ...ويك إن كنت للديوان فحاسب مهموم، أو للإنشاء فخادمٌ لمخدوم، أو للبلغ فساحرٌ مذموم...»

قال القلم: ... أما أنا ابن ماء السماء، وأليف الغدير وحليف الهواء وأما أنت فابن للنار والدخان وباتر الأعمار وخوان الإخوان...»

قال السيف: ... أنا ذو الصيت والصوت ... أنا من مارح من نار، والقلم من صلصال كالفخار ...»

قال القلم: أنا أزكى وأظهر قال السيف: أنا أبهى وأبهر و...»

(ناجي، ١٩٨٣م: ١١٩-١٢١)

ويداومان بهذه المناظرة حتى يقول القلم محاسنه ومحاسن السيف كذا: «قال القلم: ... إن كنت أعلى فأنا أعلم، أو كنت أحلى وأنا أحلم، أو كنت أقوى فأنا أقوم...» (السابق: ١٢٢) وهكذا يعترف السيف بقدرة القلم لأن يعتبر الممدوح حامه «قال السيف: كيف لا أفضلك والمقرُّ العلابي شادُّ أزرى؟» وفي المقابل يعترف القلم بفضل السيف أيضاً لأنه يعتبر الممدوح ولى أمره: «قال القلم: كيف لا أفضلك وهو عزَّ نصره ولى أمرى؟» (السابق) حينما تصل المناظرة إلى هنا يبدأ الحَكَم بالحديث ويتوجه إلى البراهين والأدلة التي ساقها كلا الطرفين يجد أن لهما ارتباطاً وثيقاً مع الممدوح. لذلك فقد تحايل وسلّم الحكم للممدوح لكي يهدأ كلا الطرفين ويسكن غضبهما.

والهدف الأساسي في هذه المناظرة التي وضعها ابن الوردي بين القلم والسيف بتمام قوة خياله؛ مدح الممدوح لأنه بإحصاء محاسن هذين العنصرين بلسانها ونسب هذه العناصر إلى الممدوح، يعبر القدرة العسكرية وتدبير حكومة الممدوح ويمدحه بشكل جيد.

وهناك مناظرة أخرى كتبت في العهد المملوكي وهي رسالة السيف والقلم لابن نباتة المصري (متوفى ٧٦٨ق) وأخرى هي حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة السيف والقلم، لأحمد بن علي القلقشندي (متوفى ٨٢١ق). وفي المجموع نستطيع أن نقول إن الهدف من المناظرات الثلاث هو مدح الممدوح، حيث تتألف البنية الأساسية للمناظرة من عدة أجزاء، جزئى المناظرة (السيف والقلم) والجزء الثالث هو الحكم الذى يحكم بين الطرفين بعد سمع أقوالهما وبالتوجه إلى البراهين والاستدلالات التي ساقها. قد يكون هناك جزء رابع وهو الراوى والذى يروى بداية الحدث وسيره ونهاية المناظرة. وقد أثر استخدام الفنون البديعية منها؛ السجع والجناس والتضمين للآيات والأحاديث والأشعار إلى جانب فن التشخيص؛ تأثيراً بارزاً وهاماً فى قيمة هذه المناظرات. ومن حيث الحجم نستطيع أن نقول بأنَّ مناظرة ابن الوردي حجمها أقل نسبة للمناظرتين السابقتين، طبعاً لا تنحصر المناظرة بين السيف والقلم على اللغة العربية وإنما توجد

أيضاً في اللغة الفارسية لأنه في كل لغة يوجد جدال وصراع بين منطق العقل (الفكرة) ومنطق القوة (القدرة) وكلا من الطرفين قائل بتفوقه وتمييزه على الآخر؛ لذلك فقد سعى الأدباء إلى امتلاك تصور لهذا الجدال ولذلك فقد وضعوا القلم والسيوف كرمز لذلك وأجروا كلا من طرفي المناظرة بالدفاع عن نفسيهما بلسان الحال. ولكن بما أنهما من عناصر مهمة لذلك نرى أن نهاية المناظرة بين القلم والسيوف غالباً ما تختتم بالصلح والصدافة لأن كليهما ركنان أساسيان في أركان حفظ الحكومة حينما يكونان متحدتين معاً وفي جانب بعضهما بعض الآخر.

ب) المقامة الياقوتية في أنواع الجواهر للسيوطي (متوفى ٩١١ق)

مناظرة السيوطي وهي مناظرة بين عدة جواهر، من المناظرات التي تقع بين الأشياء، بهذه المقامة انصرفت الجواهر في أحاديثها للمفاخرة لا للمخاصمة ليتبين أيها أفضل وأجمل. تبدأ المناظرة بحديث الياقوت وتنتهي بحديث الفيروز، وتكون المناظرة على الشكل التالي: بدأت كل واحدة من الجواهرات بحمد الله والثناء والدعاء وبعدها انصرفت لذكر محاسنها ومنافعها واستدلّت الجواهرات في أحاديثهم بآيات من كلام الله وأحاديث وأقوال العظماء والكبار، ولكنها لم تملّ أبداً لذكر معائب الطرف الآخر من جنسها (الجواهرات الأخرى) وينتهي الحديث والمناظرة بآيات عن وصف نفسها، والمؤلف لم يحكم في نهاية المناظرة وإنما سلم هذه المهمة للقارئ ليقوم بالحكم.

يشير النص التالي إلى جزء من هذه المناظرة:

«فقال الياقوت: الحمد لله الذي خلقني حسن التكوين وجعلني أبهى في العين من الدرر النظيم ... ذكرني بصريح اسمي في القرآن، في قوله تعالى في سورة الرحمن كأنهنّ الياقوت والمرجان ... وقال الزمرد: الحمد لله الذي رفع لي قدراً، واسبغ على الحلة الخضراء ... وقال العقيق: الحمد لله الذي جعلني من الحلة وكساني أبهى حلة، خصني باحسن حلة ... وقال الفيروزج: الحمد لله الذي فضلني بلونين وكساني حلتين، وجعلني أدخل في الكيمياء وفي ادوية العين ...» (انظر: السيوطي، ١٢٩٨ق: ٤٦-٥٥) وكما يرى أن المناظرة لا تقوم بين طرفين بل فيها أطراف كل يسعى لبيان فضله على الآخرين.

٢-٢-٢- المناظرة بين المفاهيم:

ومنها المفاخرة بين العلوم، لأحمد بن علي القلقشندى (متوفى ٨٢١ق)؛ كتب القلقشندى أبو حفص البلقيني المفاخرة بين العلوم المختلفة. هناك مناظرات بين سبعين ونيف من العلوم تبدأ بعلم اللغة وتنتهي بعلم التاريخ. والقلقشندى في مقدمته التي أوردتها قبل المناظرة يعترف بفضل كل العلوم ويظهر تلك الفضائل لذلك يقول: «أصل الشرف فيها من غير منازع، مُجمَعاً على أنه لا شىء من العلم من حيث هو علمٌ بضارٌّ ولا شىء من الجهل من حيث هو جهلٌ بنافع.» (انظر: القلقشندى، ١٤٠٧ق، ج ١٤: ٢٣٨) في هذه المناظرة علوم مختلفة مثل: علم الصرف، والنحو، والشعر، والحساب، والفقه، والطب، والموسيقى و... .

تعتبر هذه المناظرة من المناظرات الطويلة في الأدب العربي والتي وضعت بشكل خيالي بين عدد من العلوم المختلفة. حيث إن كل علم يتفاخر على الآخر بتعداد محاسنه وفضائله وخصائصه المميزة على العلم الذي تحدّث قبله وناظر قبله. وأحياناً تستفيد هذه العلوم من الآيات الكريمة ومن ضرب الأمثال لإثبات كلامها.

لا تعتبر رسالة القلقشندى مناظرة أو جدالاً بالمعنى المتداول، حيث إن تلك العلوم لا تسعى لذكر معائب الأخرى ولا تتحارب فيما بينها، ولطالما كانت هذه الرسالة تبحث في العلوم المختلفة إلا أن جانبها التفنني أكثر. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٦٩٧-٦٩٨) يشير النص التالي إلى جزء من هذه الرسالة:

«فكان أول بادىء بدأ منها بالكلام وفتح باب الجدال والخصام، "علم اللغة" فقال: قد علمتم معشر العلوم، أنى أعمكم نفعاً وأوسعكم مجالاً وأكثركم جمعاً؛ على قطبِ فلكى تدور الدوائر، بواسطة تدرك المقاصد ويستعلم ما فى الضمائر... ثاب إليه "علم التصريف"... وقال: ... أنا المتكفل بتأسيس مبانىك، والملتزم بتحريير ألفاظك وتقدير معانىك، بى تُعرف أصول أبنية الكلمة فى جميع أحوالها، وكيفية التصرف فى أسمائها وأفعالها... فقال "علم الشعر": أراكم قد نسيتم فضلى الذى به فضلتم، وصرتم حبلى الذى من أجله وصلتم؛ أنا حجة الأدب، وديوان العرب؛ على تردون وعنى تصدرون وإلى تنتسبون، وبى تشتهرون...» (انظر: القلقشندى، ١٤٠٧ق، ج ١٤: ٢٣٧-٢٦٣)

٢-٢-٣- المناظرة بين الحيوانات

الجمل والحصان للمقدسى (متوفى ٨٧٥ق)

في هذه المناظرة التي وصفها المقدسى بين حيوانى (الحصان والجمل) كلا الطرفين يسعى لإثبات تعاليه وتفوقه على الآخر، الجمل الذى يبدأ المناظرة ويبين محاسنه على النحو التالى: «قَالَ الْجَمَلُ: أَنَا أَحْمَلُ الْأَحْمَالَ الثَّقَالَ وَأَقْطَعُ بِهَا الْمَرَاحِلَ الطُّوَالَ وَأَكَابِدُ الْكَلَالَ وَأَصْبِرُ عَلَى مُرِّ النَّكَالِ...» (الهاشمى، ١٣٦٦ش: ٢٥٨) وفي المقابل فإنَّ الحصان يشير إلى قدرته وقوته: «فقال الحصان: أَنَا أَحْمَلُ عَلَى كَاهِلِي. فَأَجْتَهِدُ بِهِ فِي السَّيْرِ وَانْطَلِقُ بِهِ كَالطَّيْرِ، أَهْجُمُ هَجُومَ اللَّيْلِ وَأَقْتَحِمُ اقْتِحَامَ السَّيْلِ.» (السابق: ٢٥٩) في هذه المناظرة يراعى كلا الطرفين أصول المناظرة وأياً منهما لم يذكر مساوئ الآخر ولم يقيم بتحقيره؛ بل سعى كل منهما لإثبات تفوقه على الآخر وذلك بتعداد خصاله الإيجابية. إلى أنه حينما قام الحصان بإحصاء محاسنه أشار إلى فضائل الطرف الآخر ثم انصرف إلى ذكر محاسنه وخصاله نفسه: «وإن كان الجمل هو الصابر المجرب، فأنا السابق المقرَّب، وإن كان هو المقتصد اللاحق، فأنا المقرَّب السابق.» (السابق: ٢٥٩)

وفي نهاية هذه المناظرة فإنَّ الجمل يشير إلى جزء من الآية ٧ سورة النحل: «أنا المسخرُّ لكم بإشارةٍ (وتحمل أثقالكم)» والحصان إلى قسم من الآية ٩٨ سورة مريم: «وكم حَزَزْتُ رُؤُوسَ أَهْلِ النَّفَاقِ حَزًّا وَكَمْ أَخَلَيْتَ مِنْهُمْ الْآفَاقَ (هل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم ركزا)» (السابق: ٢٥٩) فقد استدلاً على صحة كلامهما بكلام الله وأنهما المناظرة بذلك.

يعتبر حجم هذه المناظرة قليلاً بالنسبة للمناظرات الأخرى الموجودة في هذه الفترة الزمنية. وتشكلت المناظرة من طرفي المناظرة فقط حيث اكتفى الأديب بذكر أحاديث الطرفين وترك الحكم للقارئ. ومن خصائص هذه المناظرة أيضاً، الاستدلال بآيات القرآن الكريم والاستفادة من الأساليب البديعية مثل السجع.

٢-٢-٤- المناظرة بين النباتات:

الف) جواهر الفرد في مناظرة النرجس والورد، للمارديني (متوفى ٧٤٤ق)

تبدأ هذه المناظرة بالحمد وثناء الخالق والنبى الأكرم (ص)، وقد قام الشيخ الماردبني قبل الدخول إلى أحاديث هذه المناظرة بوصف مختصر لكل منهما وأقرَّ بفضل وجمال كليهما ولكن بسبب الاختلاف الذى يُرى بينهما فى بعض الأحيان فقد وضعهما موضع المناظرة. ليشرح كل منهما ويثبت تفضله وتعالیه على الآخر.

تبدأ المناظرة بمجديت الورد والتي بعد حمد الله والإشارة إلى آية من آيات القرآن الكريم تبدأ حديثها: «فقال الورد:... فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَنِي عَلَى سَائِرِ الزَّهْرِ بِأَرْفَعِ الْمَرَاتِبِ ... فِي تَجَمُّلِ الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ ... فَالرَّوْضِ مَلِكِي وَالزَّهْرِ جَنُودِي، وَمَا فِيهِمْ مِنْ فَرَحٍ فِي أَعْلَامِي السُّلْطَانِيَّةِ وَكَيْفٍ لَا يَطْبِيعُونَنِي وَشَكْوَتِي فِيهِمْ قَوِيَّةٌ.» (العطار، لاتا: ٢٠-٢١) عندها تنتفض النرجس وتقول: «وقال: ... صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وحق محمد محمود الذى أوحى إليه قتل أصحاب الأخدود، لقد مدحت نفسك بالكمال مع نقصك ... واحفظ حرمتك وإلا كسرت شوكتك.» (السابق: ٢١)

تتسع هذه المناظرة على صفحات متعددة إلى أن يستخدم فيه كلا الطرفين كل الوسائل المتاحة والممكنة لمدح نفسيهما وإثبات تفوقهما على الآخر ويذكر معائب وسيئات الطرف الآخر أيضاً ويستدل كلاهما بالقرآن الكريم وبالأحاديث وبعض الأشعار لإثبات ذلك: «فقال الورد: ... أَنَجْعَلُ مَقَامَكَ مَقَامِي وَأَنْتَ مِنْ بَعْضِ خِدَامِي، ... أَتَحْسَبُ مَحَاسِنِي مِثْلَ مَحَاسِنِكَ مَتْنَاهِيَّةً وَكَيْفَ يَنْقُطِعُ عَمَلِي وَلى صَدَقَةٌ جَارِيَّةٌ، فَشْتَانِ بَيْنِي وَبَيْنِكَ؛ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهَ عَنِّ جِدَالِي قَلَعْتَ بِشَوْكَتِي عَيْنَكَ ... ففقال النرجس: يا قليل المودة، ويا قصير المدة... أَيْ فخر في إحمراك الشريق^١، وكم بين التبر^٢ والعقيق ... ولى فى السبق قصبات وكم جلوت صداع القلب بطيب النفحات. وإذا وفد جيش الزهر، فلى فى طلائة عيون. والسابقون السابقون، أولئك المقربون...

فخجل خد الورد ... وقال: يا نفاضة المحافل. لفاظة المزابل كم بين مهتوك ومصون ومتروك ومخزون ...

فقال النرجس: أنا عيون المجالس وشموع المجالس، وأنيس النديم وقد خلقنى الله

١. يريد الاحمرار الذى يخالطه شيء من الصفرة فلا يكون خالصاً إلى حمرة ولا إلى صفرة.

٢. التبر: الذهب قبل الضرب.

في أحسن تقويم ...

فقال الورد: أنا خد الحبيب نصيبى والراح يتلمس ويتمسك بذيل طيبي ... وأنشد:

أنا والراح للأرواح راحة

وكم في قبض ساقى بسيط وراحة

فقال الرجس: يا قليل الوفاء ... ألم تعلم ان التخليق بالصفرة من امارات النصرة.

وقال الجماعة من الحكماء أن من أنحس الأشكال الحمرة.

فقال الورد: هذا لوني مدكنت في أحشاء الأكمام مضغة، صبغة الله ومن أحسن من

الله صبغة.» (السابق: ٢١-٢٨)

حتى أنهما يريان مكانتهما العالية بسبب مصاحبة المحبوب وعلى ذلك يقومان بتفضيلهما على الآخرين، لأنهما يعتبران مصاحبة المحبوب مقاماً علياً ويعود بهذه الطريقة في إثبات تفوقهما: «فقال الرجس:.. فأنا على مقدور ولى الفضل بحضورى فى مقام المقر الشهابى أحمد وأنا المؤيد بفضل ظاهر لا يختفى بحضورى فى حضرة مولانا قاضى القضاة الحنفى. فقال الورد: وهذا مما يؤيد كلامى ويرفع فى الفخر مقامى فكم بلغت بحضرة المخدوم مقصودى ولم يزل إلى المنهل العذب ورودى» (السابق: ٢٨)

وعندما يصل الحديث إلى هذا الحد يتدخل الراوى ليدلى بالحكم ولكنه لم يستطع الحكم بسبب الأدلة القوية والبراهين الواضحة التى ساقها كلا الطرفين ويعطى الراوى الحكم للممدوح الذى هو مالك الراوى والدولة الزمان الفريد وفى النهاية يهدى هذه الرسالة للممدوح.

والمناظرة التى سبق شرحها كتبت بقالب القصيدة فى مدح الممدوح وكوّن بناءه من ثلاثة أجزاء؛ حيث تشكلت من طرفين المناظرة بالإضافة إلى الراوى الذى هو الجزء الثالث والذى قام بتقرير الأحاديث وفى النهاية سلّم الحكم للممدوح، يعطى البداية فى المناظرة للسورد ويختم المناظرة بالورد أيضاً. وأحاديثهما واستدلالتهما تعتمد على الآيات والأحاديث والأشعار إذاً يجب القول إن ما قام به الماردينى من تصور وتحيل لنوعى من الورود وكتابه ذلك بشكل مسجع كان موفقاً إلى حد كبير.

ب) كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار للمقدسي (متوفى ٨٧٥ق) هذه الرسالة مناظرة خيالية بين أنواع الزهور والطيور والحيوانات والتي جاءت في ٣٧ فصلا وفي كل منها تحدث نوع من هذه العناصر وينتهي حديثه بأبيات شعرية. تبدأ المناظرة بالنسيم وتنتهي بالعنقا.

نظر المقدسي بعين الفاحص المتفكر في عناصر هذه الرسالة فوجد فيها عالماً آخر يعجّ بالحركة والنشاط يشبه العالم الإنساني فينطقه ويحادثه ليتعرف خصائصه وأوصافه الدالة على عظمة الخالق وحكمته في خلقه ثم يحكى لنا قصة الحياة الدنيا والآخرة و«تزداد الرموز تنوعاً لتنوع أفراد البشر كقدوم الربيع، انقلاب الشتاء، شروود البرد، فرح الأصدقاء و...» (صبحى حباب، ١٤١٠ق: ١٦٧-١٦٨) وفي الواقع شرح فيه المؤلف أحوال أهل العزلة والتصوف، وذكر حكمهم على لسان الطيور والأزهار والحيوانات واستمد عناصرها الأولى وحكمها المتناثرة من القرآن الكريم والحديث النبوي ومن التصوف والزهد اللذين انتشرا في هذا العصر كثيراً. (باشا، ١٤٢٥ق: ٤٥٦ و ٤٦٥) والنص التالي يشير إلى طرف من هذه المناظرة:

«... فتنفس البنفسج ... وقال طوبى لمن عاش عيش السعداء، ومات موت الشهداء، ... إننى اؤخذ ايام حصولي، فأقطع من أصولي وكم ممن يتقوى على ضعفى ... فى نادى على نفسه الأفتوان ... وقال قد آن ظهورى وحن حضورى، واعتدل فصل وجودى وطاب فى الحضرة شهودى ... فىباضى هو العلم المعلم واصفرارى هو السقم المبرم ... قال الديك ... جعلت الاذان لى وظيفه، اوقظ به من كان نائماً كالجيفة وأبشر الذين يدعون ربهم تضرعا وخيفة... فقالت العنكبوت: إن كان بيتى أوهن البيوت وحبلى كما تزعمين مبتوت، فإنّ فضلى عليك فى سجل الذكر مشبوت، أما أنا فما لأحد علىّ منه ولا لام علىّ حنّه...» (انظر: المقدسى، ١٨٢١م: ٩-١١٤)

النتيجة

كان استخدام المناظرة فى العهد المملوكى بشكل التزامى حيث استخدمت المناظرات الأدبية فى هذا العهد بمعناها العام والخاص فمثالها العام فى الأحاديث الودية أو العشقية

ونموذجها الخاص في الأحاديث العدائية التي دارت بين عناصر مختلفة.

لظالما كانت المناظرات الشعرية شاملة للمناظرات بين البشر حيث يعتبر أكثرها الحديث بين العاشق والمعشوق. ولكن أيضاً في بعض الأحيان كان هناك مناظرات بين الأزهار أو إيليس مع الإنسان حيث إنّ أغلب أحاديثها تتشكل من طرفي المناظرة ودون حضور الحكم. والمناظرات المنظومة في العهد المملوكي من حيث الحجم نوعان: ١- طويل ٢- قصير، وفي معظم الأحيان تتضمن تلك المناظرات لفظة قول والذي كان تكراره عدة مرات حيث يضيف جمالاً على النص.

أمّا في أكثر المناظرات المنشورة وعلى العكس تماماً من المنظومة فإن هناك لا توجد أحاديث بين البشر بل يقتصر الحديث على عناصر مختلفة من أشياء ونبات وحيوان وعناصر طبيعية ومفاهيم... والتي كانت في كثير المواضيع لها إمّا جانب تعليمي أو ديني أو مدحى وفي بعض الأحيان نجد لها الجانب الترفيهي فقط.

والهيكلي الأساسي للمناظرات المنشورة يشتمل على طرفي المناظرة حيث إنّ في الجزء الأول يقوم أحد طرفي المناظرة بإظهار محاسنه وفضائله ويتفاخر بنفسه ويحتقر الطرف الآخر. وفي الجزء الثاني؛ يقوم الطرف الآخر بالدفاع عن نفسه وفي بعض هذه المناظرات هناك جزء ثالث يتضمن الراوي والذي يبين سير المناظرة ويدلي بالحكم من خلال توجهه إلى أحاديث الطرفين والتي غالباً ما تكون مستدلة بآيات وأحاديث وأقوال الكبار وأشعار الشعراء، واستخدام الفنون البديعية مثل السجع أيضاً كان له تأثير لا يستهان به في جمال نصوص تلك المناظرات.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، جمال الدين. ١٤٠٥ق. لسان العرب. ج ٥. قم: أدب الحوزة.
 أحمد بدوي، أحمد. ١٩٩٦م. أسس النقد الأدبي عند العرب. القاهرة: نهضة مصر.
 اذكائي، برويز. ١٣٨٦ش. «منشأ مناظرهاى ادبى». گوهر گویا. س ١. ع ١. صص ١٠-١.
 باشا، عمر. ١٤٢٥ق. تاريخ الأدب العربي (العربي المملوكي). دمشق: دارالفكر.
 بن رزيق، حميد بن محمد. ١٩٨٣م. ديوان ابن رزيق. تحقيق محمد عبدالمعتمد خفاجه. سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة.

بورجوادى، نصرالله. ١٣٨٥ش. لغة الحال في العرفان والأدب الفارسيين. تهران: هرمس.
الجرجاني، على بن محمد. ١٤٠٧ق. التعريفات. تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة. ط ١. بيروت: عالم
الكتب.

الحلّي، صفى الدين. لاتا. الديوان. بيروت: دار صادر.
داد، سيما. ١٣٧١ش. فرهنگ اصطلاحات ادبي. تهران: مرواريد.
دهخدا، على اكبر. ١٣٧٣ش. لغت نامه. تحت إشراف محمد معين وجعفر شهيدى. ج ١٣. تهران:
دانشگاه تهران.

رحيمي، مهدي. ١٣٧٤ش. المناظرة في الشعر الفارسي (منذ البدء حتى بروين اعتصامي). أطروحة
دكتوراه: طهران: جامعة تربيت مدرس.

رزجوجو، حسين. ١٣٧٠ش. انواع ادبي و آثار آن در زبان فارسي. مشهد: آستان قدس رضوي.
السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي. ١٩٦٤م. طبقات الشافعية الكبرى.
تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي. الجزء العاشر. لامك: دار إحياء الكتب العربية.
السيوطي الشافعي، عبد الرحمن. ١٢٩٨ق. مقامات. ط ١. قسطنطينية: إدارة الجوائب.
السيوطي، عبد الرحمن. ١٩٢٧م. نظم العقيان في اعيان الاعيان. حرره فيليب حتى. بيروت: المكتبة
العلمية.

شرف الدين الانصاري، الصاحب. ١٩٦٧م. الديوان. تحقيق عمر موسى باشا. دمشق: مجمع اللغة
العربية.

شميسا، سيروس. ١٣٧٣ش. انواع ادبي. تهران: فردوس.
شوشتری، مرتضى. ١٣٨٩ش. المناظرة في الأدب الفارسي. كيهان فرهنگي. ع ٢٩٠-٢٩١.
صبحي حباب، أحمد عبد القادر صلاحية. ١٤١٠ق. «التعريف بكتاب: كشف الأسرار عن حكم الطيور
والأزهار لابن غانم المقدسي». التراث العربي. العدد ٣٧-٣٨
الصادق، حسين وخالد الفردى. ٢٠٠٠م. «المناظرة في الأدب العربي الإسلامي». حلب. WWW.
tawtheonline.com

الظريف، الشاب. ١٤١٥ق. الديوان. قدّمه وشرحه صلاح الدين الهواري. ط ١. بيروت: دار الكتب
العربية.

العتار، عزت. لاتا. مناظرات في الأدب. القاهرة: لجنة الشبيبة السورية بمصر.
غلامحسين زاده، غلامحسين وكبرى روشنفكر و ابراهيم خدايار ونعيمة حسوكي. ١٤٣٢ق. «دراسة
مقارنة لمناظرات السيف والقلم بين الأدبين العربي والفارسي (اليقوي الطوسي وابن نباتة المصري
نموذجاً)». مجلة العلوم الإنسانية الدولية. العدد ١٨(٤). صص ٢١-٣٦.
غنيمي هلال، محمد. ١٩٦٢م. الأدب المقارن. بيروت: دار العودة ودار الثقافة.

القلقشندی، أحمد بن علی. ١٤٠٧ق. صبح الأعشى فی صناعة الإنشاء. شرحه محمد حسین شمس الدین. ط ١. الجزء ١٤. بیروت: دارالفکر.

محمدی، هاشم. ١٣٨٣ش. «المناظرة فی الأدب الفارسی». کتاب ماه (ادبیات وفلسفه). ٧٨

معین، محمد. ١٣٨١ش. فرهنگ فارسی (یک جلدی). ط ٣. طهران: سُرایش.

المقدسی، عزالدین بن غانم. ١٨٢١م. کشف الأسرار عن حکم الطيور والأزهار. مدينة باريز: دار الطباعة السلطانية.

ناجی، هلال. ١٩٨٣م. «مناظرتان بین السیف والقلم». المورد. العدد ٤.

وهبة، مجدی. ١٩٨٤م. معجم المصطلحات العربية فی اللغة والأدب. ط ٢. بیروت: مكتبة لبنان.

الهاشمی، أحمد. ١٣٦٦ش. جواهر الأدب. ط ١. قم: استقلال.



پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی